وادي الظلال

الجزء الثاني

الفصل التاسع

أفاقت سلمى في صبيحة اليوم التالي وقد أطبق على صدرها كآبة خانقة.. إنه يوم رهيب في حياتها..

ودخلت ليلى:

- روجي!.. إن الدكتور "خالد" هنا وسيفحصك بنفسه..

- وكان الدكتور خالد وهو الطبيب المشرف على المصح لا يأتي إلا في أيام معدودة في الشهر لأن له عيادة خاصة في بيروت..

وأخذ قلب سلمى يدقّ دقات عنيفة، حين عرت صدرها أمام الأشعة في الغرفة المظلمة..

وهتف الطبيب الكهل مخاطبا الطبيب العملاق:

- ليس هناك ما تزعمون.. إن الفتاة شافية!..

والتفت إلى سلمى وقال:

- لقد سألني أخوك عن حالتك، وأظن أنه ليس لدي من مانع في ذهابك!..

ولم تصدق سلمى أذنيها.. كانت يداها ترتجفان انفعالا وهي ترتدي ملابسها.. وراحت تتوثب إلى غرفتها..

إن فرحها لأكبر من أن يسعه صدرها، فهي تقفز وترقص وتقبل إقدام والآنسة هيفا وجورجيت..

إنها الفرحة بالحياة.. الفرحة بالصحة والحب.. والفرحة بالأهل والوطن..

وجاء الطبيب المعاون وهنأها على شفائها، فابتسمت معاتبة:

- كنت سأذهب ضحية غلطة.. الحرارة كانت بسبب "كريب" أصابني كما علمت فيما بعد..

- على كل حال لا زلت بحاجة إلى عناية كبيرة، وأنصحك أن تبقي هنا حتى انتهاء الصيف..

ولكن سلمى كانت تعلم المبالغ الكبيرة التي يدفعها لها أخوها "عبد الـرحمن" ثمنـا لبقائها في المصح وهي لا تريد له مزيدا من التكاليف..

* * *

فعل الحماس فعله بنفس إقدام لعودة أحمد فراحت تخيط بمـساعدة الآنـسة هيفـا وإحدى الممرضات ثوبا من ثوبين قديمين لها، أحدهما من الحرير الأبيض المنقط بالأحمر، والآخر من الحرير الكحلي.. وبدت رشيقة جذابة في ثوبهـا المـستجد بالرغم من نحولها.. وكانت تصفف شعرها المنسدر كل يوم فيتموج على ظهرهـا وكتفيها جداول سود.. والتمعت عيناها ببريق من الحمى والشوق..

كانت ترتقب أحمد بلهفة يغلب فيها الفرح على الحزن.. وتذهب في الصبحيات وبعد العصر إلى الطريق خارج البوابة وينتفض قلبها لكل سيارة عابرة..

ومر أسبوع وهي في هذا الارتقاب الموجع دون أن يبين أحمد.. وفيما هـي ذات ليلة مرتكزة على حافة النافذة بعد أن أطفئت الأنوار.. وبقي نور ضئيل يشع مـن الردهة وقد أطار القلق النوم من عينيها، إذا بها ترى شبحين يمران قرب مصباح الطريق، فيخيل إليها أنها ترى أحمد، فتهز سلمى التي كانت قد أغفت منـذ قليـل وتهمس لها بما خالجها.. فتثب سلمى من سريرها إلى النافذة ولكن لا ترى أحـدا، فتؤنب صديقتها برفق على ما تحمل نفسها من عناء وقلق لا فائدة فيهما..

ولكن إقدام لم تكن لتستطيع السيطرة على أعصابها فتشد علـى يـد سـلمى بأصابع مثلجة مرتجفة، وهي تنظر من النافذة وتهمس مؤكدة:

- إنه هو.. لقد اختفى الآن ولكنه هو..

ولم يلبث أن سمع صوت الراهبة الليلية في الباب:

- لماذا أنتما خارج فراشيكما؟..

وأمسكت سلمى بقلة الماء التي تضعها في النافذة والتفتت إلى الراهبة مبتسمة:

- نريد أن نشرب يا "ماسير"

- لا تقلقا زميلاتكما!..

وغابت في نور الردهة الضئيل..

كان يبدو على إقدام في اليوم التالي أنها لم تنم إلا لماما في الليلة الفائتة.. فهي معياة منتفخة الجفنين قليلا، وحرارتها مرتفعة.. ومع ذلك فهي تلح على سلمى أن تذهب معها إلى الطريق في مشوار..

وقالت "سعدى" الفتاة القروية وهي ترتب سريرها:

- سأصبح راهبة.. لقد صممت على أن أصير راهبة..

وشهقت الآنسة هيفا دهشة:

- ماذا دهاك؟.. هل جننت؟..

- لا إن هذا أفضل لي من العودة إلى أهلي..

وسألتها سلمى مستفهمة:

- ما الذي يجعلك تكرهين العودة إلى أهلك يا سعدى؟..

- إن والدي فقير معيل ولي زوجة أب قاسية.. إن الحياة في القرية حيـاة شـاقة صعبة.. لم أعد أستطيع أن أحتطب وأحمل جرار الماء وأحرث الحقل وأجوع بعد ذلك..

- وذهبت سلمى وإقدام إلى المطعم تاركين الآنسة هيفا تعظ الفتاة وتنصحها بعدم توريط نفسها بالرهبنة وهي بعد صغيرة لا تتجاوز السادسة عشرة..

لم تذق إقدام إلا القليل من فطورها، فلقد كانت نهبا للقلق البائس، وكانت أسرع من سار على الطريق في نزهة ذلك الصباح، فصادفت ضـارب الكمـان قـرب البوابة وهتف إذ رآها:

- ألم تشاهدي أحمد؟..

وشهقت إقدام:

- هل جاء أحمد؟..

- نعم.. انتظري حتى أناديه.. لعله في دكان السمان أو اللحام..

وشدت إقدام على يد سلمى بفرح عصبي وهي تقول:

- هل رأيت؟.. قلت لك أنه هو فلم تصدقيني..

وأوغلت الفتاتان في الطريق دون أن تلتفتا، وهما صامتتان.. فقالت سلمى منبهـة رفيقتها:

- من الأفضل أن نعود فنلتقي به بصورة عفوية..

ولم تخطو بضعة خطوات حتى كانتا وجها لوجه أمام "أحمد"..

ابتسم أحمد وبانت أسنانه النضيدة وهو يمد يده مسلما على سـلمى ثـم علـى إقدام.. كان وجهه شاحبا شحوب الأموات، وشفته العليا تختلج وهو يتمتم بمـا لا يفهم..

وأشاحت سلمى بوجهها عنه، وأخذت تراقب الطريق وهي مستندة إلى صخرة، ولم تلبث أن سمعت أحمد يقول:

- لم أنم ليلة البارحة..

- وأنا أيضا لم أنم..

- بقيت ساعات في الحرش أرقب الضوء الضئيل الذي ينبعث من غرفتك، وأقول لنفسي: هنا تنام إقدام ولا تدري بي!..

ولم يتح لهما أن يطيلا حديثهما.. لقد بدا بعض المرضى على الطريق، فافترقا بعد أن وعد كل منهما الآخر برسالة..

* * *

ضج المصح بنبأ هرب الأخت تيريز مع أحد المرضى الناقهين ولم يبق أحد في الغرفة لم يعلق على الأمر حين دخلت الأخت "أوجيني" تحمل صينية الأدوية مكانها، وهي راهبة دمثة الخلق تتحدث همسا وتخدم المرضى بقلب عامر بالحنان والحب..

قالت الآنسة "هيفا" بشماتة:

- ليس غريبا أن تفعل ما فعلت.. كنت أتنبأ لها بهذا المصير لسوء طباعها..

فقالت الأخت أوجيني بأسف:

- لقد شوهت سمعة الراهبات بتهورها وجنونها..

وقالت جورجيت بدهشة:

- كيف لا تحترم نفسها وهي راهبة؟..

وقالت إقدام بعطف:

- مسكينة.. كانت طيبة القلب.. ولكن الحب جارف..

وقالت سعدى بسذاجة:

- أنا إن أصبحت راهبة فلن أفكر بالحب..

فالتفتت سلمى إلى الراهبة الجديدة وقالت بحماس:

- أقول لك الحق أيتها الأخت أوجيني أن الملوم هو ظروفها الاجتماعية السيئة، وأساليبكن أحيانا في إغواء الصغيرات قبل أن يدركن ما خلقن له..

خذي مثلا سعدى.. لقد صممت على أن تصبح راهبة، ولم؟.. إنها تظن بأنها تضمن مستقبلها في أن لا تجوع، وتجد مأوى دون إرهاق.. لقد نسيت الآن قلبها لأنها لم تعرف الحب بعد.. ولكن كيف يكون حالها إن استيقظ قلبها يوما؟..

- تميته في سبيل الله والخير والواجب..

- ليس كلهن مثلك أيتها الأخت أوجيني يستطعن أن يصعدن ميولهن في سبيل الله والخير والواجب ويخنقن العاطفة الطبيعية للحب والأمومة في أنفسهن، فإذا فشلت إحداهن في أن تصبح راهبة حقيقية في أعماقها كانت عرضة لأحد شرين.. الهستريا أو الانحراف.. أتعلمين أن الراهبات هنا حاولن أن يغرينني أنا الفتاة المسلمة المخطوبة منذ الصغر على الترهب؟..

وقالت الأخت أوجيني مدافعة بهدوء:

- ولكن هناك فترة تتلمذ فيها قبل أن تصبح راهبة، ويكون لها الحق في أن تنسحب إن لم تجد نفسها أهلا لما كرست له نفسها..

وأجابت سلمى بإصرار:

- وحتى في هذه الحال تطبق عليها الظروف الاجتماعية والإغراء، فتقع في الفخ برغمها..

فقالت الأخت أوجيني وهي تعقد يديها كأنها تصلي وتستغفر وقد كسا وجهها غمامة حزينة:

لا تقولي فخا.. إنه طريق الله، وهو طريق شاق وعر تُمتحن فيه النفس امتحانا قاسيا، وقليل هم الفائزون..

* * *